

## سورة مريم

٣٦- قوله تعالى ( كهيص ذكُر رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ) .

قَدْ بَيَّنَّ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ هَذَا الَّذِي يُنْتَلَى فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ هُوَ ذِكْرُ اللَّهِ رَحْمَتَهُ الَّتِي رَحِمَ بِهَا عَبْدَهُ زَكِرِيَّا حِينَ نَادَاهُ نِدَاءً خَفِيًّا أَيَّ : دَعَاهُ فِي سِرِّ وَخُفْيَةٍ .

وَتَنَاوُهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَيْهِ بِكَوْنِ دُعَائِهِ خَفِيًّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِخْفَاءَ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهِ وَإِعْلَانِهِ .

وَهَذَا الْمَعْنَى الْمَفْهُومُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ) ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ( ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ) .

وَإِنَّمَا كَانَ الْإِخْفَاءُ أَفْضَلَ مِنَ الْإِظْهَارِ ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِخْلَاصِ ، وَأَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ .

فَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ سَبَبَ إِخْفَائِهِ دُعَاءَهُ أَنَّهُ خَوْفُهُ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَلُومُوهُ عَلَى طَلَبِ الْوَلَدِ، فِي حَالِهِ لَا يُمَكِّنُ فِيهَا الْوَلَدَ عَادَةً لِكِبَرِ سِنِّهِ وَسِنِّ امْرَأَتِهِ، وَكَوْنِهَا عَاقِرًا، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ أَخْفَاهُ؛ لِأَنَّهُ طَلَبَ أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ، فَإِنْ أَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ فِيهِ نَالَ مَا كَانَ يُرِيدُ، وَإِنْ لَمْ يُجِبْهُ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ أَحَدٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ، كُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ بِالْأَظْهَرِ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ السِّرَّ فِي إِخْفَائِهِ هُوَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ كَوْنِ الْإِخْفَاءِ أَفْضَلَ مِنَ الْإِعْلَانِ فِي الدُّعَاءِ . ٢٥٨ / ٤ .

٣٧- قوله تعالى ( قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ) .

وَدُعَاءُ زَكِرِيَّا هَذَا لَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَكَانَهُ وَلَا وَقْتَهُ ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ «آلِ عِمْرَانَ» فِي قَوْلِهِ ( كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنِنِّي لَكَ هَذَا قَالَتَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ) .

فَقَوْلُهُ «هُنَالِكَ» أَيَّ : فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي وَجَدَ فِيهِ ذَلِكَ الرَّزْقَ عِنْدَ مَرْيَمَ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : «هُنَالِكَ» أَيَّ : فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ هُنَا رُبَّمَا أُشِيرَ بِهَا إِلَى الزَّمَانِ . ٢٥٨ / ٤

٣٨- قوله تعالى ( قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ) .

وَقَوْلُهُ فِي دُعَائِهِ هَذَا ( رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ) أَيَّ : ضَعْفَ ، وَالْوَهْنُ : الضَّعْفُ .

وَإِنَّمَا ذَكَرَ ضَعْفَ الْعَظْمِ ؛ لِأَنَّهُ عَمُودُ الْبَدَنِ وَبِهِ قِوَامُهُ ، وَهُوَ أَصْلُ بِنَائِهِ فَإِذَا وَهَنَ دَلَّ عَلَى ضَعْفِ جَمِيعِ الْبَدَنِ ؛ لِأَنَّهُ أَشَدُّ مَا فِيهِ وَأَصْلَبُهُ ، فَوَهْنُهُ يَسْتَلْزِمُ وَهْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْبَدَنِ . ٢٥٩ / ٤

٣٩- قوله تعالى ( وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ

وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ) .

مَعْنَى قَوْلِهِ ( خِفْتُ الْمَوَالِيَ ) أَيَّ : خِفْتُ أَقَارِبِي وَبَنِي عَمِّي وَعُصْبَتِي : أَنْ يُصَيِّعُوا الدِّينَ بَعْدِي، وَلَا يَفْعَلُوا لِلَّهِ بِدِينِهِ حَقَّ الْقِيَامِ، فَارْزُقْنِي وَلَدًا يَفْعَلُ بَعْدِي بِالدِّينِ حَقَّ الْقِيَامِ ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ تَعَلَّمَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ ( يَرِثُنِي ) أَنَّهُ إِرْثٌ عِلْمٌ وَتُبُوَّةٌ ، وَدَعْوَةٌ إِلَى اللَّهِ وَالْقِيَامَ بِدِينِهِ ، لَا إِرْثٌ مَالٍ ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَمْرَانِ :

أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُ ( وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ) وَمَعْلُومٌ أَنَّ آلَ يَعْقُوبَ انْقَرَضُوا مِنْ زَمَانٍ ، فَلَا يُورِثُ عَنْهُمْ إِلَّا الْعِلْمُ وَالتُّبُوَّةُ وَالدِّينُ .

وَالْأَمْرُ الثَّانِي : مَا جَاءَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ لَا يُورِثُ عَنْهُمْ الْمَالُ ، وَإِنَّمَا يُورِثُ عَنْهُمْ الْعِلْمُ وَالدِّينُ ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ

( لَا تُورِثُ ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً ) . ٢٦٠ / ٤

#### ٤٠ - قوله تعالى ( وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا ) .

ظَاهِرٌ فِي أَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا فِي زَمَنِ شَبَابِهَا ، وَالْعَاقِرُ : هِيَ الْعَقِيمُ الَّتِي لَا تَلِدُ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى .  
وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى أَنَّهُ أَزَالَ عَنْهَا الْعُقْمَ ، وَأَصْلَحَهَا ، فَجَعَلَهَا وَلُودًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَاقِرًا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ( فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ) .

فَهَذَا الْإِصْلَاحُ هُوَ كَوْنُهَا صَارَتْ تَلِدُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَقِيمًا .

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ إِصْلَاحَهَا الْمَذْكُورَ هُوَ جَعْلُهَا حَسَنَةَ الْخَلْقِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ سَيِّئَةَ الْخَلْقِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ لِجَوَازِ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ بَيْنَ الْأُمُرَيْنِ فِيهَا ، مَعَ أَنْ كَوْنَ الْإِصْلَاحِ هُوَ جَعْلُهَا وَلُودًا بَعْدَ الْعُقْمِ هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَجَاهِدٍ وَعَبْرِهِمْ ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي يُرْوَى عَنْ عَطَاءٍ .  
٤ / ٢٦٧ .

#### ٤١ - قوله تعالى ( يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ) .

قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ( اسْمُهُ يَحْيَى ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي سَمَّاهُ ، وَلَمْ يَكِلْ تَسْمِيَتَهُ إِلَى أَبِيهِ ، وَفِي هَذَا مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِيَحْيَى .

وَقَوْلُهُ ( لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ) أَي : لَمْ نَجْعَلْ مِنْ قَبْلِهِ أَحَدًا يَتَسَمَّى بِاسْمِهِ ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَانَ اسْمُهُ يَحْيَى .

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ مَعْنَاهُ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ سَمِيًّا ، أَي : نَظِيرًا فِي السُّمُومِ وَالرِّفْعَةِ غَيْرُ صَوَابٍ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَفْضَلَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَنُوحٍ ، فَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الصَّوَابُ .  
٤ / ٢٧٠ .

تنبيه :

اعلم : أَنَّ السَّمِيَّ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِطْلَاقَيْنِ :

الأول : قَوْلُهُمْ : فَلَانٌ سَمِيٌّ فَلَانٍ أَي : مُسَمًّى بِاسْمِهِ ، فَمَنْ كَانَ اسْمُهُمَا وَاحِدًا فَكِلَاهُمَا سَمِيٌّ الْآخَرِ ، أَي : مُسَمًّى بِاسْمِهِ .

والثاني : إِطْلَاقُ السَّمِيَّ يَعْنِي الْمُسَامِيَّ ، أَي : الْمُمَاتِلَ فِي السُّمُومِ وَالرِّفْعَةِ وَالشَّرَفِ .

فَقَوْلُهُ ( رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ) مَعْنَاهُ : أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا مُمَاتِلٌ يُسَامِيهِ فِي الْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ وَالْكَمَالِ عَلَى التَّحْقِيقِ .

#### ٤٢ - قوله تعالى ( قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ) .

المُرَادُ بِالْآيَةِ هُنَا الْعَلَامَةُ .

أَي : اجْعَلْ لِي عِلَامَةً أَعْلَمُ بِهَا وَفُوعَ مَا بُشِّرْتُ بِهِ مِنْ الْوَلَدِ .

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : طَلَبَ الْآيَةَ عَلَى ذَلِكَ لِتَيِّمِ طَمَائِنَتُهُ بِوُفُوعِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، وَنَظِيرُهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ : ( قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِذَا نُنْفِثُ الْمَاءَ فِي الْحَمْلِ بِأَيِّ شَيْءٍ يَحْيِيهِ ) .

وَقِيلَ : أَرَادَ بِالْعَلَامَةِ أَنْ يَعْرِفَ ابْتِدَاءَ حَمْلِ امْرَأَتِهِ ؛ لِأَنَّ الْحَمْلَ فِي أَوَّلِ زَمَانِهِ يَحْفَى .  
٤ / ٢٧٥ .

#### ٤٣ - قوله تعالى ( قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ) .

أَي : عِلَامَتُكَ عَلَى وَفُوعِ ذَلِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ، أَي : أَنْ تُنْمَعَ الْكَلَامَ فَلَا تُطِيقُهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ بِأَيَّامِهِنَّ فِي حَالِ كَوْنِكَ ( سَوِيًّا )

أَي : سَوِيًّا الْخَلْقِ ، سَلِيمِ الْجَوَارِحِ ، مَا بِكَ خَرَسٌ وَلَا بُكْمٌ وَلَكِنَّكَ مَمْنُوعٌ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى سَبِيلِ خَرَقِ الْعَادَةِ .

وَأَمَّا ذِكْرُ اللَّهِ فَلَيْسَ مَمْنُوعًا مِنْهُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي ( آلِ عِمْرَانَ ) ( وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ) .

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ( ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ) أَي : ثَلَاثَ لَيَالٍ مُتَتَابِعَاتٍ غَيْرُ صَوَابٍ ، بَلْ مَعْنَاهُ هُوَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ

كُونَ اخْتِقَالَ لِسَانِهِ عَنْ كَلَامِ قَوْمِهِ لَيْسَ لِعَلَّةٍ وَلَا مَرَضٍ حَدَثَ بِهِ ، وَلَكِنْ يُغَدِّرُ اللَّهُ تَعَالَى . ٢٧٦ / ٤ .

٤٤ - قوله تعالى ( يَايْحَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ) .

قَوْلُهُ ( يَايْحَىٰ خُذِ الْكِتَابَ ) مَقُولٌ قَوْلٍ مَحْدُوفٍ ، أَيْ : وَقُلْنَا لَهُ يَايْحَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .

وَالْكِتَابُ : التَّوْرَةُ ، أَيْ : خُذِ التَّوْرَةَ بِقُوَّةٍ ، أَيْ : بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ ، وَذَلِكَ بِتَفْهَمِ الْمَعْنَى أَوَّلًا حَتَّى يَفْهَمَهُ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ ، ثُمَّ يَعْمَلُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، فَيَعْتَقِدُ عَقَائِدَهُ ، وَيُجَلِّحُ حَلَالَهُ ، وَيُحَرِّمُ حَرَامَهُ ، وَيَتَأَدَّبُ بِآدَابِهِ ، وَيَتَعَطَّ بِمَوَاعِظِهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جِهَاتِ الْعَمَلِ بِهِ ، وَعَامَّتُهُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ هُنَا : التَّوْرَةُ ، وَحَكَى غَيْرٌ وَاحِدٍ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ .

٤٥ - ( وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ) .

أَيْ : أَعْطَيْنَاهُ الْحُكْمَ .

وَالْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالْحُكْمِ أَقْوَالٌ مُتَفَارِقَةٌ ، مَرْجِعُهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الْفَهْمَ فِي الْكِتَابِ ، أَيْ : إِدْرَاكَ مَا فِيهِ وَالْعَمَلُ بِهِ فِي حَالِ كَوْنِهِ صَبِيًّا .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ، أَيْ : الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالْحِدَّةَ وَالْعَزْمَ ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْإِكْتِبَابَ عَلَيْهِ ، وَالْاجْتِهَادَ فِيهِ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثَ .

وَقَالَ ابْنُ حَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ، يَقُولُ تَعَالَى : وَأَعْطَيْنَاهُ الْفَهْمَ بِكِتَابِ اللَّهِ فِي حَالِ صِبَاهٍ قَبْلَ بُلُوغِهِ أَسْنَانَ الرِّجَالِ .

قَالَ مُقْبِدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَقَّرَ لَهُ : الَّذِي يَظْهَرُ لِي هُوَ أَنَّ الْحُكْمَ يُعْلَمُ النَّافِعَ وَالْعَمَلُ بِهِ ، وَذَلِكَ بِفَهْمِ الْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ فَهْمًا صَحِيحًا ، وَالْعَمَلُ بِهِ حَقًّا ، فَإِنَّ هَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَأَصْلُ مَعْنَى «الْحُكْمِ» الْمَنْعُ ، وَالْعِلْمُ النَّافِعُ ، وَالْعَمَلُ بِهِ يَمْتَنِعُ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ مِنَ الْخُلَلِ وَالْفَسَادِ وَالنُّقْصَانِ . ٢٨٧ / ٤ .

٤٦ - قوله تعالى ( صَبِيًّا ) .

أَيْ : لَمْ يَبْلُغْ ، وَهُوَ الظَّاهِرُ ، وَقِيلَ : صَبِيًّا ، أَيْ : شَابًا لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْكُهُولَةِ ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانٍ وَعَظِيْرُهُ .

وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ ، قِيلَ ابْنُ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَقِيلَ ابْنُ سَبْعٍ ، وَقِيلَ ابْنُ سِتِّينَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ٢٨٨ / ٤ .

٤٧ - قوله تعالى ( وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرِكَاهًا وَكَانَ تَقِيًّا ) .

وقَوْلُهُ ( وَحَنَانًا ) مَعْطُوفٌ عَلَى الْحُكْمِ ، أَيْ : وَآتَيْنَاهُ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا ، وَالْحَنَانُ : هُوَ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَالْعَطْفِ وَالشَّفَقَةِ . وَأَصْحُ التَّفْسِيرَاتِ فِي قَوْلِهِ ( وَرِكَاهًا ) أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَيْ : أَوْ أَعْطَيْنَاهُ رِكَاهًا ، أَيْ : طَهَارَةً مِنْ أَدْرَانِ الدُّنُوبِ وَالْمَعْاصِي بِالطَّاعَةِ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِمَا يُرْضِيهِ . ٢٨٩ / ٤ .

٤٨ - هَذَا هُوَ حَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ صِفَاتِ يَحْيَى ، وَذَكَرَ بَعْضَ صِفَاتِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ،

كَقَوْلِهِ فِي ( آلِ عِمْرَانَ ) ( فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ) .

وَمَعْنَى كَوْنِهِ ( مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ) أَنَّهُ مُصَدِّقٌ بِعِيسَى ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِعِيسَى كَلِمَةً ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَوْجَدَهُ بِكَلِمَةٍ هِيَ قَوْلُهُ «كُنْ» فَكَانَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ( إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ) ، وَقَالَ ( إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ) ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ .

وقَوْلُهُ ( وَسَيِّدًا ) ..... وَأَصْلُهُ مِنَ السَّوَادِ وَهُوَ الْخَلْقُ الْكَثِيرُ ، فَالسَّيِّدُ مَنْ يُطِيعُهُ ، وَيَتَّبِعُهُ سِوَاكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ .

وَالآيَةُ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ السَّيِّدِ عَلَى مَنْ سَادَ مِنَ النَّاسِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَعَبَّرَهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ( إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ) الْحَدِيثُ .  
وَأَنَّهُ ﷺ : لَمَّا جَاءَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْحُكْمِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ قَالَ ﷺ : فُومُوا لِسَيِّدِكُمْ .

وَالْتَحْقِيقُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ ( وَحُصُورًا ) أَنَّهُ الَّذِي حَصَرَ نَفْسَهُ عَنِ النِّسَاءِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِيْتَابِهِنَّ تَبْتُلًا مِنْهُ ، وَانْقِطَاعًا لِعِبَادَةِ اللَّهِ ،  
وَكَانَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي شَرْعِهِ ، وَأَمَّا سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فَهِيَ التَّرْوِيجُ وَعَدَمُ التَّبْتُلِ .

أَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْحُصُورَ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ ، وَأَنَّهُ مُحْصُورٌ عَنِ النِّسَاءِ ؛ لِأَنَّهُ عَيِّنَ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِيْتَابِهِنَّ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ؛  
لِأَنَّ الْعُنَّةَ عَيْبٌ وَنَقْصٌ فِي الرِّجَالِ ، وَلَيْسَتْ مِنْ فِعْلِهِ حَتَّى يُشْتَى عَلَيْهِ بِهَا ، فَالصَّوَابُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ هُوَ مَا ذَكَرْنَا . ٢٩٥ / ٤

٤٩- قوله تعالى ( قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ) .

أَيُّ : لِأَهَبَ لَكِ أَنَا أَيُّهَا الرَّسُولُ مِنْ رَبِّكِ غُلَامًا زَكِيًّا .

وَفِي مَعْنَى إِسْنَادِهِ الْهَيْبَةُ إِلَى نَفْسِهِ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ خِلَافَ مَعْرُوفٍ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَأَظْهَرَ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي : أَنَّ الْمُرَادَ  
بِقَوْلِ جَبْرِيلَ لَهَا ( قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ) أَيُّ : لِأَكُونَ سَبَبًا فِي هَيْبَةِ الْعُلَامِ بِالنَّفْحِ فِي الدَّرَجِ الَّذِي  
وَصَلَ إِلَى النَّجْمِ ، فَصَارَ بِسَبَبِهِ حَمْلُهَا عَيْسَى ، وَبَيَّنَّ تَعَالَى فِي سُورَةِ ( التَّحْرِيمِ ) أَنَّ هَذَا النَّفْحَ فِي فَرْجِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( وَمَرْيَمَ  
ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ) ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : «فِيهِ» رَاجِعٌ إِلَى فَرْجِهَا . ٢٩٩ / ٤

٥٠- قوله تعالى ( قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ) .

ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ مِنْ حِكْمِ خَلْقِهِ عَيْسَى مِنْ امْرَأَةٍ بَعِيرٍ زَوْجٍ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، أَيُّ عِلْمًا دَالَّةً  
عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ كَيْفَ يَشَاءُ :  
إِنْ شَاءَ خَلَقَهُ مِنْ أَنْثَى بِدُونِ ذَكَرٍ كَمَا فَعَلَ بِعَيْسَى .

وَإِنْ شَاءَ خَلَقَهُ مِنْ ذَكَرٍ بِدُونِ أَنْثَى كَمَا فَعَلَ بِحَوَاءَ ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ( وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ) ، أَيُّ : خَلَقَ مِنْ تِلْكَ  
النَّفْسِ الَّتِي هِيَ آدَمُ زَوْجَهَا حَوَاءَ .

وَإِنْ شَاءَ خَلَقَهُ بِدُونِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى مَعًا كَمَا فَعَلَ بِآدَمَ .

وَإِنْ شَاءَ خَلَقَهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَى كَمَا فَعَلَ بِسَائِرِ بَنِي آدَمَ .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

وَمَا ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ كَوْنِهِ جَعَلَ عَيْسَى آيَةً حَيْثُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ ، أَشَارَ لَهُ أَيْضًا فِي «الْأَنْبِيَاءِ»  
بِقَوْلِهِ ( وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ) ، وَفِي «الْفَلَّاحِ» بِقَوْلِهِ ( وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا ) .

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ( وَرَحْمَةً مِنَّا ) أَيُّ : لِمَنْ آمَنَ بِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ فَلَمْ يَنْبَغِ الرَّحْمَةُ لِنَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي نَبِيِّنَا ﷺ ( وَمَا  
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ) . ٣٠٢ / ٤

٥١- قوله تعالى ( فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ) .

ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ مَرْيَمَ حَمَلَتْ عَيْسَى ، فَقَوْلُهُ ( فَحَمَلَتْهُ ) أَيُّ : عَيْسَى فَانْتَبَدَّتْ بِهِ ، أَيُّ : تَنَحَّتْ بِهِ  
وَبَعُدَتْ مُعْتَرِلَةً عَنْ قَوْمِهَا مَكَانًا قَصِيًّا ، أَيُّ : فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ .

وَالجُنْهُورُ عَلَى أَنَّ الْمَكَانَ الْمَذْكُورَ بَيْتُ لَحْمٍ ، وَفِيهِ أَقْوَالٌ أُخْرَى غَيْرُ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ ( فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ ) أَيُّ : أَبْجَأَهَا الطَّلُقُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ، أَيُّ : جِذْعِ نَخْلَةٍ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : جَاءَ

فَلَانَ ، وَ : أَحْجَاءُهُ غَيْرُهُ : إِذَا حَمَلَهُ عَلَى الْمَجِيءِ ، وَالطَّلُقُ ، وَهُوَ وَجَعُ الْوِلَادَةِ ، وَسُمِّيَ مَخَاضًا مِنَ الْمَخْضِ ، وَهُوَ الْحَرَكَةُ الشَّدِيدَةُ لِشِدَّةِ تَحْرُكِ الْجَيْنِ فِي بَطْنِهَا إِذَا أَرَادَ الْخُرُوجَ .  
٤ / ٣٠٣ .

٥٢- كما قال تعالى ( وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ) وَقَالَ ( وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ) وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمُهورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ النَّفْخِ نَفْخُ جِبْرِيلَ فِيهَا بِإِذْنِ اللَّهِ فَحَمَلَتْ ، كَمَا تَدُلُّ لِدَلِّكَ قِرَاءَةُ الْجُمُهورِ فِي قَوْلِهِ ( إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ) كَمَا تَقَدَّمَ .

وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ إِسْنَادُ اللَّهِ حَلَّ وَعَلَا النَّفْخَ الْمَذْكُورَ لِنَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ : فَتَفَخْنَا لِأَنَّ جِبْرِيلَ إِذَا أَوْقَعَهُ بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَهُوَ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ الْحَمْلَ مِنْ ذَلِكَ النَّفْخِ ، فَجِبْرِيلُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْحَمْلَ مِنْ ذَلِكَ النَّفْخِ .  
٤ / ٣٠٤ .

٥٣- وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي قَدْرِ الْمُدَّةِ الَّتِي حَمَلَتْ فِيهَا مَرِيَمُ بَعِيسَى قَبْلَ الْوَضْعِ لَمْ نَذْكُرْهَا ؛ لِعَدَمِ دَلِيلٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، وَأَظْهَرُهَا أَنَّهُ حَمَلٌ كَعَادَةِ حَمْلِ النِّسَاءِ وَإِنْ كَانَ مَنْشُؤُهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .  
٤ / ٣٠٨ .

٥٤- قوله تعالى ( فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ) .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ مُخْتَلِفُونَ فِي هَذَا الْمُنَادِي الَّذِي نَادَاهَا ..... مَنْ هُوَ ؟

فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هُوَ عِيسَى .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هُوَ جِبْرِيلُ .

قَالَ مُقْبِدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ : أَظْهَرَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدِي أَنَّ الَّذِي نَادَاهَا هُوَ ابْنُهَا عِيسَى ، وَتَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَرِيْبَتَانِ :

الأولى : أَنَّ الضَّمِيرَ يَرْجِعُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ إِلَّا بِدَلِيلٍ صَارِفٍ عَنِ ذَلِكَ يَجِبُ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ ، وَأَقْرَبُ مَذْكُورٍ فِي الْآيَةِ هُوَ عِيسَى لَا جِبْرِيلُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ : فَحَمَلْتَهُ ، يَعْنِي عِيسَى فَانْتَبَذَتْ بِهِ ، أَيَّ بَعِيسَى ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ : «فَنَادَاهَا» فَالَّذِي يَظْهَرُ وَيَتَبَادَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ عِيسَى .

وَالْقَرِيْبَةُ الثَّانِيَةُ : أَنَّهَا لَمَّا جَاءَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا أَشَارَتْ إِلَى عِيسَى لِيُكَلِّمُوهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهَا ( فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ) وَإِشَارَتُهَا إِلَيْهِ لِيُكَلِّمُوهُ قَرِيْبَةٌ عَلَى أَنَّهَا عَرَفَتْ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَلَى سَبِيلِ حَزَقِ الْعَادَةِ لِنِدَائِهِ لَهَا عِنْدَمَا وَضَعْتَهُ ، وَبِهَذِهِ الْقَرِيْبَةُ الْأَخِيْرَةُ اسْتَدَلَّ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنْهُ عَلَى أَنَّهُ عِيسَى ، كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ .  
٤ / ٣١٠ .

٥٥- قوله تعالى ( قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ) .

اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالسَّرِيِّ هُنَا :

فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هُوَ الْجَدُولُ وَهُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ .

لِأَنَّ اللَّهَ أَجْرَى لَهَا تَحْتَهَا نَهْرًا ، وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى ( فَكُلِّي ) أَيُّ : مِنَ الرُّطْبِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ ( تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَيًّا ) ، ( وَأَشْرِي ) ، أَيُّ : مِنَ النَّهْرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ ( قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ) .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : السَّرِيُّ هُوَ عِيسَى ، وَالسَّرِيُّ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي لَهُ شَرَفٌ وَمُرُوءَةٌ .

قَالَ مُقْبِدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ : أَظْهَرَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدِي أَنَّ السَّرِيَّ فِي الْآيَةِ النَّهْرُ الصَّغِيرُ .

وَمِمَّنْ اخْتَارَ أَنَّ السَّرِيَّ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ النَّهْرُ : ابْنُ حَرِيْرٍ فِي تَفْسِيْرِهِ ، وَبِهِ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنِ ابْنِ

عَبَّاسٍ ، وَعَمْرُو بْنُ مِيْمُونٍ ، وَجَاهِدٌ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .  
٤ / ٣١٤ .

٥٦- قوله تعالى ( وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيًّا . فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ) .

وَالَّذِي يُفْهَمُ مِنْ سِيَاقِ الْقُرْآنِ : أَنَّ اللَّهَ أَنْبَتَ لَهَا ذَلِكَ الرُّطْبَ عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ ، وَأَجْرَى لَهَا ذَلِكَ النَّهْرَ عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ ، وَلَمْ يَكُنِ الرُّطْبُ وَالنَّهْرُ مُؤْجِدَيْنِ قَبْلَ ذَلِكَ ، سَوَاءٌ فُلْنَا إِنَّ الْجِدْعَ كَانَ يَابَسًا أَوْ نَخْلَةً غَيْرَ مُشْمِرَةٍ ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَنْبَتَ فِيهِ الثَّمَرَ وَجَعَلَهُ رَطْبًا حَبِيًّا ، وَوَجَّهَ دَلَالَةَ السِّيَاقِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَيْنَهَا إِنَّمَا تَقَرُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُبَيِّنُ بَرَاءَتَهَا بِمَا اتَّهَمُوهَا بِهِ ، فَوْجُودُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ مِنْ تَفْجِيرِ النَّهْرِ ، وَإِنْبَاتِ الرُّطْبِ ، وَكَلَامِ الْمُؤَلُّودِ - تَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ نَفْسُهَا وَتُرْوَلُ بِهِ عَنْهَا الرَّيْبُ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهَا . ٣١٥ / ٤ .

٥٧- قوله تعالى ( وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ..... ) .

أَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ( وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ) أَنَّ السَّعْيَ وَالسَّهْبُ فِي تَحْصِيلِ الرِّزْقِ أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا وَأَنَّهُ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، وَهَذَا أَمْرٌ كَالْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالصَّرُورَةِ أَنَّ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ فِي تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ فِي الدُّنْيَا أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ بِحَالٍ .

وَمَا يُوضِّحُ أَنَّ تَعَاطِي الْأَسْبَابِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ : قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يَعْقُوبَ ( وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ) أَمَرَهُمْ فِي هَذَا الْكَلَامِ بِتَعَاطِي السَّبَبِ ، وَتَسَبَّبَ فِي ذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُ عَلَيْهِمْ أَنْ تُصِيبَهُمُ النَّاسُ بِالْعَيْنِ لِأَنَّهُمْ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا أَبْنَاءَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَهُمْ أَهْلُ جَمَالٍ وَكَمَالٍ وَبَسْطَةِ فِي الْأُحْسَامِ ، فَدَخُوهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ مَظَنَّةٌ لِأَنَّ تُصِيبَهُمُ الْعَيْنُ فَأَمَرَهُمْ بِالتَّفَرُّقِ وَالدُّخُولِ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ تَعَاطِيًا لِلْسَّبَبِ فِي السَّلَامَةِ مِنْ إِصَابَةِ الْعَيْنِ ؛ كَمَا قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ ، وَمَعَ هَذَا التَّسَبُّبِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَنْهُ ( وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكُمَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ) فَانظُرْ كَيْفَ جَمَعَ بَيْنَ التَّسَبُّبِ فِي قَوْلِهِ : لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَبَيْنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ : عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ . ٣١٧ / ٤ .

٥٨- قوله تعالى ( فَإِذَا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ) .

قِيلَ : أَمَرْتُ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ بِاللَّفْظِ ، وَقِيلَ أَمَرْتُ أَنْ تَقُولَهُ بِالْإِشَارَةِ .

وَكَوْنُهَا أَمْرٌ أَنْ تَقُولَهُ بِاللَّفْظِ هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ ؛ كَمَا قَالَ الْفَرُطِيُّ وَأَبُو حَيَّانَ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

لِأَنَّ ظَاهِرَ الْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ ) أَنَّهُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ .

وَاسْتَدَلَّ مَنْ قَالَ : إِنَّهَا أَمَرْتُ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ بِأَنَّهَا لَوْ قَالَتْهُ بِاللَّفْظِ أَفْسَدَتْ نَذْرَهَا الَّذِي نَذَرْتَهُ إِلَّا تُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ، فَإِذَا قَالَتْ لِإِنْسِيٍّ بِلِسَانِهَا ( إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ) فَقَدْ كَلَّمَتْ ذَلِكَ الْإِنْسِيَّ فَأَفْسَدَتْ نَذْرَهَا ، وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ الْأَخِيرَ لِدَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَيْهِ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَإِحْبَابُ الْمُخَالِفُونَ عَنْ هَذَا بِأَنَّ الْمَعْنَى ( فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ) بَعْدَ قَوْلِي ( إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ) .

فَقَدْ رَأَيْتُ كَلَامَ الْعُلَمَاءِ فِي الْآيَةِ : وَأَنَّ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ السِّيَاقِ ، وَأَنَّ الثَّانِيَّ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ، لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْكَلَامِ لِلْإِنْسِيِّ مُطْلَقًا . ٣٢٠ / ٤ .

٥٩- قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ : وَقَوْلُهُ ( إِنْسِيًّا ) لِأَنَّهَا كَانَتْ تُكَلِّمُ الْمَلَائِكَةَ ، وَمَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّ قَوْلَهُ «إِنْسِيًّا» لَهُ مَفْهُومٌ مُخَالِفٌ ،

أَيْ : بِخِلَافِ غَيْرِ الْإِنْسِيِّ كَالْمَلَائِكَةِ فَإِنِّي أُكَلِّمُهُ .

وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي الْكَلَامِ إِخْرَاجَ الْمَفْهُومِ عَنْ حُكْمِ الْمَنْطُوقِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ شُمُولُ نَفْيِ الْكَلَامِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ كَاتِبًا مِنْ

## ٦٠- قوله تعالى ( يَا أُخْتَ هَارُونَ ) .

لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ هَارُونَ بِنَ عِمْرَانَ أَخَا مُوسَى ، كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْجَهْلَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ آخَرُ صَالِحٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُسَمَّى هَارُونَ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ هَارُونَ أَخَا مُوسَى :

مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ ( لَمَّا قَدِمْتُ بَحْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا : إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ : يَا أُخْتَ هَارُونَ ، وَمُوسَى قَبْلُ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا ، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ ) .

وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ آخَرٌ غَيْرُ هَارُونَ أَخِي مُوسَى ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَارُونَ أَخَا مُوسَى قَبْلَ مَرَمٍ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ .

وَإِذَا حَقَّقْتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَارُونَ فِي الْآيَةِ غَيْرُ هَارُونَ أَخِي مُوسَى :

فَاعْلَمْ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ ، قَالَ : إِنَّ لَهَا أَخًا اسْمُهُ هَارُونَ .

وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : إِنَّ هَارُونَ الْمَذْكُورَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهَا مَشْهُورٌ بِالصَّلَاحِ .

وَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِكَوْنِهَا أُخْتَهُ أَنَّهَا تُشَبِّهُهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى ، وَإِطْلَاقُ اسْمِ الْأَخِ عَلَى النَّظِيرِ الْمَشَابِهِ مَعْرُوفٌ فِي الْقُرْآنِ وَفِي

كَلَامِ الْعَرَبِ . ٣٤٣ / ٤ .

## ٦١- قوله تعالى ( قَالَ إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ) .

قَوْلُهُ ( آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ) التَّحْقِيقُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ : أَنَّهُ عَبَّرَ بِالْمَاضِي عَمَّا سَيَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ تَنْزِيلاً لِتَحَقُّقِ الْوُقُوعِ مَنَزَلَةَ الْوُقُوعِ ، وَنَظَائِرُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( أَمْرٌ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ) ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ( وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ .... ) فَهَذِهِ الْأَفْعَالُ الْمَاضِيَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَاتِ بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ ، تَنْزِيلاً لِتَحَقُّقِ وَوُقُوعِهِ مَنَزَلَةَ الْوُقُوعِ بِالْفِعْلِ ، وَنَظَائِرُهَا كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّ الْأَفْعَالَ الْمَاضِيَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( آتَانِي

الْكِتَابَ ) بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ هُوَ الصَّوَابُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ وَأُوتِيَ الْكِتَابَ فِي حَالِ صِبَاهٍ لِيُظَاهِرَ اللَّفْظَ .

وَقَوْلُهُ ( وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ) أَي : كَثِيرَ الْبَرَكَاتِ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ الْخَيْرَ وَيَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ .

. ٣٤٤ / ٤

## ٦٢- قوله تعالى ( وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ) .

الْحَسْرَةُ : أَشَدُّ النَّدَمِ وَالتَّلَفِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي فَاتَ وَلَا يُمَكِّنُ تَدَارُكُهُ .

وَالْإِنْدَارُ : الْإِعْلَامُ الْمُقْتَرَنُ بِتَهْدِيدٍ ، أَي : أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقِيلَ لَهُ : يَوْمَ الْحَسْرَةِ ؛ لِشِدَّةِ نَدَمِ الْكُفَّارِ فِيهِ عَلَى التَّفْرِيطِ ، وَقَدْ يَنْدَمُ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ .

( وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ) أَي : فِي غَفْلَةِ الدُّنْيَا مُعْرِضُونَ عَنِ الْآخِرَةِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ هُنَا ( إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ) أَي : دُبْحِ الْمَوْتِ .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ( يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ،

فَيَسْتَرْبِئُونَ وَيَنْظُرُونَ ، فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ ، ثُمَّ يَنَادِي : يَا أَهْلَ النَّارِ ،

فَيَسْتَرْبِئُونَ وَيَنْظُرُونَ ، فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ ، فَيُدْبِحُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ

خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ " ، ثُمَّ قَرَأَ ( وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ) ، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ

الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

وَالْحَدِيثُ مَشْهُورٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَقِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ الْآيَةَ بَعْدَ ذِكْرِ ذَبْحِ الْمَوْتِ تُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ " إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ " أَي : ذَبْحُ الْمَوْتِ .

وَفِي مَعْنَاهُ أَقْوَالٌ أُخْرَى غَيْرُ هَذَا تَرَكَّنَاهَا لِذِلَالَةِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي دَكَّرْنَا . ٤ / ٣٥٣ .

٦٣- قَوْلُهُ تَعَالَى ( وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ) .

وَالصِّدِّيقُ صِبْغَةٌ مُبَالَغَةٌ مِنَ الصِّدْقِ ، لِشِدَّةِ صِدْقِ إِبْرَاهِيمَ فِي مُعَامَلَتِهِ مَعَ رَبِّهِ وَصِدْقِ هَجْتِهِ ، كَمَا شَهِدَ اللَّهُ لَهُ بِصِدْقِ مُعَامَلَتِهِ فِي قَوْلِهِ ( وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ) ، وَقَوْلِهِ ( وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ) .

وَمِنْ صِدْقِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ رَبَّهُ : رِضَاهُ بِأَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ ، وَشُرُوعُهُ بِالْفِعْلِ فِي ذَلِكَ طَاعَةً لِرَبِّهِ ، مَعَ أَنَّ الْوَلَدَ فَلْدَةٌ مِنَ الْكَبِدِ .

وَمِنْ صِدْقِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ مَعَ رَبِّهِ : صَبْرُهُ عَلَى الْإِلْقَاءِ فِي النَّارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ( قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ) ، وَقَالَ ( فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ) .

وَمِنْ صِدْقِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ رَبَّهُ : صَبْرُهُ عَلَى مُفَارَقَةِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ فِرَارًا بِدِينِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ( فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ) ، وَقَدْ هَاجَرَ مِنْ سَوَادِ الْعِرَاقِ إِلَى دِمَشْقَ . ٤ / ٣٥٦ .

٦٤- قَوْلُهُ تَعَالَى ( قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ) .

( لِأَرْجُمَنَّكَ ) قِيلَ : بِالْحِجَارَةِ وَقِيلَ : بِاللِّسَانِ شَتْمًا ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِهَجْرِهِ مَلِيًّا أَي : زَمَانًا طَوِيلًا . ٤ / ٣٦٠ .

٦٥- قَوْلُهُ تَعَالَى ( وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ) .

اِغْلَمَ أَنْ فِي قَوْلِهِ ( مُخْلَصًا ) قِرَاءَتَيْنِ سَبْعِيَّتَيْنِ :

قَرَأَهُ عَاصِمٌ وَحَمْرُزُ وَالْكَسَائِيُّ بِفَتْحِ اللَّامِ بِصِبْغَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ أَنَّ اللَّهَ اسْتَخْلَصَهُ وَاصْطَفَاهُ .

وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى ( قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي ) .

وَقَرَأَهُ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ ( مُخْلَصًا ) بِكَسْرِ اللَّامِ بِصِبْغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِيعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ) . ٤ / ٣٦٤ .

٦٦- وَقَوْلُهُ ( فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ) .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لِأَنَّهُمَا كَانَتَا مِنْ جِلْدِ جِمَارٍ غَيْرِ ذَكِّيٍّ .

وَجَاءَ فِيهِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ وَلَا يَصِحُّ .

وَفِيهِ أَقْوَالٌ أُخْرَى لِلْعُلَمَاءِ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَأَظْهَرُهَا عِنْدِي وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ : أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ - أَي نَزْعِهِمَا مِنْ قَدَمَيْهِ - لِيعْلَمَهُ

التَّوَاضُّعَ لِرَبِّهِ حِينَ نَادَاهُ ، فَإِنَّ نِدَاءَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، يَسْتَوْجِبُ مِنَ الْعَبْدِ كَمَالَ التَّوَاضُّعِ وَالْحُضُوعِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ ( طَوَى ) أَنَّهُ اسْمٌ لِلْوَادِي . ٤ / ٣٦٦ .

٦٧- قَوْلُهُ تَعَالَى ( فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ) .

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمُرَادِ بِإِضَاعَتِهِمْ الصَّلَاةَ :

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمُرَادُ بِإِضَاعَتِهَا تَأْخِيرُهَا عَنْ وَقْتِهَا .

وَمِمَّنْ يُرَوَى عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ هُوَ الصَّحِيحُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِضَاعَتُهَا الْإِخْلَالُ بِشُرُوطِهَا ، وَمِمَّنْ اخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ الرَّجَّاحُ .



وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمُرَادُ بِإِضَاعَتِهَا جَحْدٌ وَجُوهَا .

وَقِيلَ : إِضَاعَتُهَا إِقَامَتُهَا فِي غَيْرِ الْجَمَاعَاتِ .

وَقِيلَ : إِضَاعَتُهَا : تَعْطِيلُ الْمَسَاجِدِ وَالِاشْتِغَالُ بِالصَّنَائِعِ وَالْأَسْبَابِ .

قَالَ مُقَيَّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ :

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ تَدْخُلُ فِي الْآيَةِ ؛ لِأَنَّ تَأْخِيرَهَا عَنْ وَقْتِهَا ، وَعَدَمَ إِقَامَتِهَا فِي الْجَمَاعَةِ ، وَالْإِخْلَالَ بِشُرُوطِهَا ، وَجَحْدَ وَجُوهَا ، وَتَعْطِيلَ الْمَسَاجِدِ مِنْهَا كُلُّ ذَلِكَ إِضَاعَةٌ لَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ أَنْوَاعُ الْإِضَاعَةِ تَتَفَاوَتْ . ٤ / ٣٨٥ .

تنبيه :

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الْخَلْفُ بِالْفَتْحِ : الصَّلَاحُ ، وَبِالسُّكُونِ : الطَّلِيحُ .

قَالَ لَبِيدٌ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ ... وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وَمِنْهُ قِيلَ لِلرَّدِيِّ مِنَ الْكَلَامِ : خَلْفٌ ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ السَّائِرُ ( سَكَتَ أَلْفًا وَنَطَقَ خَلْفًا ) ، فَخَلْفٌ فِي الذَّمِّ بِالِاسْتِغْنَاءِ ، وَخَلْفٌ بِالْفَتْحِ فِي الْمَدْحِ ، هَذَا هُوَ الْمُسْتَعْمَلُ الْمَشْهُورُ ، قَالَ ﷺ : يَجْمَلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُذُولُهُ . ٤ / ٣٨٥ .

٦٨- قوله تعالى ( لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ) .

فِيهِ سُؤَالٌ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : مَا وَجْهُ ذِكْرِ الْبُكْرَةِ وَالْعَشِيِّ ، مَعَ أَنَّ الْجَنَّةَ ضِيَاءٌ دَائِمٌ وَلَا لَيْلَ فِيهَا ، وَلِلْعُلَمَاءِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ أَجْوِبَةٌ :

الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبُكْرَةِ وَالْعَشِيِّ قَدْرُ ذَلِكَ مِنَ الزَّمَنِ .

الْجَوَابُ الثَّانِي : أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ فِي زَمَانِهَا تَرَى أَنَّ مَنْ وَجَدَ عَدَاءً وَعَشَاءً فَذَلِكَ النَّاعِمُ ، فَتَنَزَّلَتْ الْآيَةُ مُرَجَّبَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ .

الْجَوَابُ الثَّلَاثُ : أَنَّ الْعَرَبَ تُعَبِّرُ عَنِ الدَّوَامِ بِالْبُكْرَةِ وَالْعَشِيِّ ، وَالْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ : أَنَا عِنْدَ فُلَانٍ صَبَاحًا وَمَسَاءً ، وَبُكْرَةً وَعَشِيًّا ، يُرِيدُ الدَّيْمِيَّةَ وَلَا يَقْصِدُ الْوَقْتَيْنِ الْمَعْلُومَيْنِ .

الْجَوَابُ الرَّابِعُ : أَنَّ تَكُونَ الْبُكْرَةَ هِيَ الْوَقْتُ الَّذِي قَبْلَ اشْتِعَالِهِمْ بِلَدَائِهِمْ ، وَالْعَشِيُّ : هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي بَعْدَ فِرَاقِهِمْ مِنْ لَدَائِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ يَتَخَلَّلُهَا فِتْرَاتٌ انْتَقَالَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَهَذَا يَرْجِعُ مَعْنَاهُ إِلَى الْجَوَابِ الْأَوَّلِ .

الْجَوَابُ الْخَامِسُ : هُوَ مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي ( نَوَادِرِ الْأُصُولِ ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ الْحَسَنِ وَأَبِي قَلَابَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، هَلْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ لَيْلٍ ؟ قَالَ : « وَمَا يَهَيِّجُكَ عَلَى هَذَا » ؟ قَالَ : سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ : وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، فَقُلْتُ : اللَّيْلُ بَيْنَ الْبُكْرَةِ وَالْعَشِيِّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسَ هُنَاكَ لَيْلٌ ، إِنَّمَا هُوَ ضَوْءٌ وَنُورٌ ، يَرُدُّ الْعُدُوَّ عَلَى الرِّوَاحِ وَالرِّوَاحُ عَلَى الْعُدُوِّ ، تَأْتِيهِمْ طُرْفُ الْهُدَايَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَوَاقِيَتِ الصَّلَاةِ الَّتِي كَانُوا يُصَلُّونَ فِيهَا فِي الدُّنْيَا وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ » . انْتَهَى .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ أَنْ نَقَلَ هَذَا : وَهَذَا فِي غَايَةِ الْبَيَانِ لِمَعْنَى الْآيَةِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِ التَّذَكُّرِ ، ثُمَّ قَالَ : وَقَالَ الْعُلَمَاءُ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي نُورٍ أَبَدًا ، إِنَّمَا يَعْرِفُونَ مِقْدَارَ اللَّيْلِ مِنَ النَّهَارِ بِإِرْحَاءِ الْحُجْبِ ، وَإِعْلَاقِ الْأَبْوَابِ ، وَيَعْرِفُونَ مِقْدَارَ النَّهَارِ بِرَفْعِ الْحُجْبِ ، وَفَتْحِ الْأَبْوَابِ ، ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ الْجُوزِيُّ وَالْمَهْدَوِيُّ وَغَيْرُهُمَا . انْتَهَى مِنْهُ ، وَهَذَا الْجَوَابُ الْأَخِيرُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ عَنِ الْحَسَنِ وَأَبِي قَلَابَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ رَاجِعٌ إِلَى الْجَوَابِ الْأَوَّلِ . ٤ / ٤٢٦ .

٦٩- قوله تعالى ( فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ) .

قَوْلُهُ فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ ( جِثِيًّا ) جَمْعُ جَاثٍ ، وَالْجَاثِي : اسْمٌ فَاعِلٍ : جَثَا يَجْثُو جُثْوًا ، وَجَثَى يَجْثِي جِثِيًّا : إِذَا جَلَسَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ أَوْ قَامَ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ ، وَالْعَادَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ : أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا فِي مَوْقِفٍ ضَنْكٍ وَأَمْرٍ شَدِيدٍ ، جَثُوا عَلَى رُكْبَتَيْهِمْ . وَكَوْنُ مَعْنَى قَوْلِهِ ( جِثِيًّا ) فِي هَذِهِ آيَةِ ، وَقَوْلِهِ ( وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ) أَنَّهُ جِثِيَّتُهُمْ عَلَى رُكْبَتَيْهِمْ هُوَ الظَّاهِرُ ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَكْثَرِ ، وَهُوَ الْإِطْلَاقُ الْمَشْهُورُ فِي اللُّغَةِ . ٤ / ٤٣٢ .

٧٠- قوله تعالى ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ... ) .

اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِوُرُودِ النَّارِ فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَقْوَالٍ :

الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوُرُودِ الدُّخُولُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَصْرِفُ أَذَاهَا عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ ذَلِكَ الدُّخُولِ .

الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِوُرُودِ النَّارِ الْمَدْكُورِ : الْجَوَازُ عَلَى الصِّرَاطِ ؛ لِأَنَّهُ جِسْرٌ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنٍ جَهَنَّمَ .

الثَّلَاثُ : أَنَّ الْوُرُودَ الْمَدْكُورَ هُوَ الْإِشْرَافُ عَلَيْهَا وَالْقُرْبُ مِنْهَا .

الرَّابِعُ : أَنَّ حَظَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ الْوُرُودِ هُوَ حُرُّ الْحَمَى فِي دَارِ الدُّنْيَا .

ثم قال رحمه الله : ... اعلم أن ابن عباس رضي الله عنهما استدل على المراد بـوُرُودِ النَّارِ فِي آيَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ الدَّلِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ .

وَإِضَاحُهُ أَنَّ وُرُودَ النَّارِ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَالْمُرَادُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا الدُّخُولُ ، فَاسْتَدَلَّ بِذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى

أَنَّ «الْوُرُودَ فِي آيَةِ الَّتِي فِيهَا التَّرَاعُ هُوَ الدُّخُولُ» ؛ لِذَلَالَةِ الْآيَاتِ الْأُخْرَى عَلَى ذَلِكَ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( يَفْقَهُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ) ، قَالَ : فَهَذَا وُرُودٌ دُخُولٌ .

وَكَقَوْلِهِ ( لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ) ، فَهُوَ وُرُودٌ دُخُولٌ أَيْضًا .

وَكَقَوْلِهِ ( وَنَسُوفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى — إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ) .

وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ فِي «أَنَّ الْوُرُودَ الدُّخُولُ» .

ثم قال رحمه الله :

الدَّلِيلُ الثَّانِي : هُوَ أَنَّ فِي نَفْسِ آيَةِ قَرِينَةَ دَالَّةً عَلَى ذَلِكَ ، وَهِيَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَاطَبَ جَمِيعَ النَّاسِ بِأَنَّهُمْ سَيَرُدُونَ النَّارَ بِرُكْبَتَيْهِمْ

وَفَاجِرُهُمْ بِقَوْلِهِ ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ) بَيَّنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَآلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْوُرُودِ الْمَدْكُورِ بِقَوْلِهِ ( ثُمَّ

نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا ) أَي : نَتْرُكُ الظَّالِمِينَ فِيهَا ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ وُرُودَهُمْ لَهَا دُخُولُهُمْ فِيهَا ، إِذْ لَوْ لَمْ يَدْخُلُوهَا

لَمْ يَفُلْ : وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا بَلْ يَفُوقُ : وَنُدْخِلُ الظَّالِمِينَ ، وَهَذَا وَاضِحٌ كَمَا تَرَى .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ( ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ وَقَعُوا فِيهَا مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ هَلَكَةٌ ، وَلِذَا عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ : وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا

وَإِرْدَاهَا قَوْلُهُ : ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا . ٤ / ٤٣٥ .

٧١- قوله تعالى ( فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ) .

قَوْلُهُ ( إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ) أَي : نَعُدُّ الْأَعْوَامَ وَالشُّهُورَ وَالْأَيَّامَ الَّتِي دُونَ وَقْتِ هَلَاكِهِمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الْمُحَدَّدُ لِذَلِكَ

أَهْلَكْنَاهُمْ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : عَجَلْتُ عَلَيْهِ بِكَذَا : إِذَا اسْتَعْجَلْتَهُ مِنْهُ .

وَالْأَظْهَرُ فِي آيَةِ هُوَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّ الْعَدَّ الْمَدْكُورَ عَدُّ الْأَعْوَامِ وَالْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ مِنَ الْأَجَلِ الْمُحَدَّدِ .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : هُوَ عَدُوٌّ أَنْفَاسِهِمْ .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّمَا نَعُدُّهُمْ عَدُوًّا أَيْ : نَعُدُّ أَعْمَالَهُمْ لِنَحَازِيهِمْ عَلَيْهَا ، وَالظَّاهِرُ هُوَ مَا قَدَّمْنَا . ٤ / ٤٨٧ .

٧٢- قوله تعالى ( يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ) .

وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ ( وَفَدًا ) ، أَيْ : رُكْبَانًا ، وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ : هُمْ رُكْبَانٌ عَلَى نَحَائِبٍ مِنْ نُورٍ مِنْ مَرَكَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَرُكُوبُهُمُ الْمَذْكُورُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمَحْشَرِ إِلَى الْجَنَّةِ ، أَمَا مِنَ الْقَبْرِ فَالظَّاهِرُ أَنََّّهُمْ يُحْشَرُونَ مُشَاهَةً ، بِدَلِيلِ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الدَّالِّ عَلَى أَنََّّهُمْ يُحْشَرُونَ حُفَاهَ غُرَاهُ غُرْلًا ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ وَجَزَمَ بِهِ الْقُرْطُبِيُّ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

٧٣- قوله تعالى ( وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ) .

السُّوقُ مَعْرُوفٌ .

وَالْمُجْرِمُونَ : جَمْعُ تَصْحِيحٍ لِلْمُحْرِمِ ، وَهُوَ اسْمٌ فَاعِلٍ الْإِجْرَامِ ، وَالْإِجْرَامُ : اِزْتِكَابُ الْجَرِيمَةِ ، وَهِيَ الذَّنْبُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ بِهِ التَّكَالَ وَالْعَذَابَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ( وَرِدًا ) أَيْ : عِطَاشًا ، وَأَصْلُ الْوَرْدِ : الْإِثْنَانُ إِلَى الْمَاءِ ، وَلَمَّا كَانَ الْإِثْنَانُ إِلَى الْمَاءِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْعَطَشِ أُطْلِقَ هُنَا اسْمُ الْوَرْدِ عَلَى الْجَمَاعَةِ الْعِطَاشِ . ٤ / ٤٩١ .

٧٤- قوله تعالى ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ) .

قَوْلُهُ ( هَلْ يُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ) أَيْ : هَلْ تَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ ، أَوْ تَشْعُرُ بِهِ ، أَوْ تَجِدُهُ .

( أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ) أَيْ : صَوْتًا ، وَأَصْلُ الرِّكْرِ : الصَّوْتُ الْخَفِيُّ . ٤ / ٤٩٧ .

## سورة طه

٧٥- قوله تعالى ( طه ) .

أَظْهَرَ الْأَقْوَالِ فِيهِ عِنْدِي أَنَّهُ مِنَ الْخُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَنَّ الطَّاءَ وَالْهَاءَ الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي فَاتِحَةِ هَذِهِ السُّورَةِ ، جَاءَتَا فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى لَا نِزَاعَ فِيهَا فِي أَنَّهُمَا مِنَ الْخُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : قَوْلُهُ طه : مَعْنَاهُ يَا رَجُلُ . قَالُوا : وَهِيَ لَعْنَةُ بَنِي عَدْنَانَ ، وَبَنِي طَيْبٍ ، وَبَنِي عُكْلٍ .

وَبِي قَوْلِهِ طه أَقْوَالٌ أُخْرَى ضَعِيفَةٌ ، كَالْقَوْلِ بِأَنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَوْلِ بِأَنَّ الطَّاءَ مِنَ الطَّهَارَةِ ، وَالْهَاءَ مِنَ الْهِدَايَةِ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ : يَا طَاهِرًا مِنَ الذُّنُوبِ ، يَا هَادِي الْخَلْقِ إِلَى عِلَامِ الْغُيُوبِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الضَّعِيفَةِ . وَالصَّوَابُ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ هُوَ مَا صَدَرْنَا بِهِ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى . ٤ / ٤٩٩ .

٧٦- قوله تعالى ( إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى ) .

أَظْهَرَ الْأَقْوَالِ فِيهِ : أَنَّهُ مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ ، أَيْ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِلَّا تَذَكَّرَ ، أَيْ إِلَّا لِأَجْلِ التَّذَكُّرِ لِمَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَيَخَافُ عَذَابَهُ .

وَالتَّذَكُّرُ : الْمَوْعِظَةُ الَّتِي تَلِيهَا الْقُلُوبُ . فَتَمْتَلِكُ أَمْرَ اللَّهِ ، وَتَحْتَبِئُ نَهْيَهُ .

وَخَصَّ بِالتَّذَكُّرِ مَنْ يَخْشَى دُونَ غَيْرِهِمْ ، لِأَنََّّهُمْ هُمُ الْمُتَنَبِّهُونَ بِهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ) ، وَقَوْلِهِ ( إِنَّمَا

٤ / ٥٠٢ .

تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ) .

٧٧- قَوْلُهُ تَعَالَى ( وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ) .

وَفِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ( وَأَخْفَى ) أَوْجُهُ مَعْرُوفَةٌ كُلُّهَا حَقٌّ وَيَشْهَدُ لَهَا قُرْآنٌ :

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَعْلَمُ السِّرَّ : أَيُّ مَا قَالَهُ الْعَبْدُ سِرًّا وَأَخْفَى أَيُّ وَيَعْلَمُ مَا هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ ، وَهُوَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ .  
كَمَا قَالَ تَعَالَى ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَخُنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ) .  
وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ : أَيُّ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَأَخْفَى مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ مَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَفْعَلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ فَاعِلُهُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى ( وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ) .

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى ( هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ) ، فَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّهُ الْإِنْسَانُ الْيَوْمَ . وَمَا سِيَّرَهُ عَدَا . وَالْعَبْدُ لَا يَعْلَمُ مَا فِي عَدِي .  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ( وَأَخْفَى ) صَبِيغَةٌ تَفْضِيلٌ كَمَا بَيَّنَّا ، أَيُّ : وَيَعْلَمُ مَا هُوَ أَخْفَى مِنَ السِّرِّ ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ «أَخْفَى» فِعْلٌ مَاضٍ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَعْلَمُ سِرَّ الْخَلْقِ ، وَأَخْفَى عَنْهُمْ مَا يَعْلَمُهُ هُوَ ، كَقَوْلِهِ ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ) ظَاهِرُ السُّعُوطِ كَمَا لَا يَخْفَى .

٧٨- قَوْلُهُ تَعَالَى ( فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ) .

السِّنِينَ الَّتِي لَبِثَهَا فِي مَدْيَنَ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ) .

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ «مَرْيَمَ» أَنَّهُ أُمَّ الْعَشْرَ ، وَبَيَّنَّا دَلِيلَ ذَلِكَ مِنَ السَّنَةِ .

وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَجَلَ فِي قَوْلِهِ ( فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ) أَنَّهُ عَشْرُ سِنِينَ لَا ثَمَانٍ .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : لَبِثَ مُوسَى فِي مَدْيَنَ ثَمَانِي وَعِشْرِينَ سَنَةً ، عَشْرٌ مِنْهَا مَهْرُ ابْنَةِ صِهْرِهِ ، وَثَمَانٍ عَشْرَةٌ أَقَامَهَا هُوَ اخْتِيَارًا ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

٧٩- قَوْلُهُ تَعَالَى ( ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ) .

أَظْهَرَ الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ) أَيُّ : جِئْتَ عَلَى الْقَدَرِ الَّذِي قَدَرْتَهُ وَسَبَقَ فِي عِلْمِي أَنَّكَ تَجِيءُ فِيهِ فَلَمْ تَتَأَخَّرْ عَنْهُ وَلَمْ تَتَقَدَّمْ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى ( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ) . ٥١٤ / ٤ .

٨٠- قَوْلُهُ تَعَالَى ( مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ) .

وَالْتَحْقِيقُ أَنَّ مَعْنَى خَلْقِهِ النَّاسَ مِنْ تُرَابٍ أَنَّهُ خَلَقَ آبَاءَهُمْ مِنْ تُرَابٍ وَكَانُوا تَبَعًا لَهُ فِي الْخَلْقِ صَدَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ تُرَابٍ . ٤٣٠ / ٤

٨١- قَوْلُهُ تَعَالَى ( فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ) .

وَأَصْحُ الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ ( سُوًى ) عَلَى قِرَاءَةِ الْكُسْرِ وَالضَّمِّ : أَنَّهُ مَكَانٌ وَسَطٌ تَسْتَوِي أَطْرَافُ الْبَلَدِ فِيهِ . لِتَوْسُطِهَا بَيْنَهَا ، فَلَمْ يَكُنْ أَقْرَبَ لِلشَّرْقِ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَا لِلْجَنُوبِ مِنَ الشَّمَالِ .

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ مَكَانًا سُوًى أَيُّ نَصْفًا وَعَدْلًا لِيَتِمَّ كَنْ جَمِيعِ النَّاسِ أَنْ يَحْضُرُوا . وَقَوْلُهُ : سُوًى أَصْلُهُ مِنَ الْإِسْتِوَاءِ .

لِأَنَّ الْمَسَافَةَ مِنَ الْوَسْطِ إِلَى الطَّرْفَيْنِ لَا تَعَاوَتْ فِيهَا بَلْ هِيَ مُسْتَوِيَةٌ .

٨٢- قوله تعالى ( وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ) .

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّيْنَا : يَعْني أَنَا ، أَمْ رَبُّ مُوسَى أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .

وَأَقْتَصَرَ عَلَى هَذَا الْقَرْطُبيُّ . وَعَلَيْهِ فَيَرْعَوْنَ يَدْعِي أَنَّ عَذَابَهُ أَشَدُّ وَأَبْقَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

وَهَذَا كَقَوْلِهِ ( أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ) ، وَقَوْلِهِ ( مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ) .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّيْنَا أَنَا ، أَمْ مُوسَى أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .

وَعَلَى هَذَا فَهُوَ كَالْتَهْكُمِ بِمُوسَى لِاسْتِضْعَافِهِ لَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَمْ يُطِغُهُ . كَقَوْلِهِ ( أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي

هُوَ مَهِينٌ ) . ٥٩٠ / ٤ .

٨٣- وَعَلِمَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا : هَلْ فَعَلَ بِهِمْ فِرْعَوْنُ مَا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ ، أَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ بِهِمْ ؟

فَقَالَ قَوْمٌ : قَتَلَهُمْ وَصَلَبَهُمْ . وَقَوْمٌ أَنْكَرُوا ذَلِكَ .

وَأَظْهَرُهُمَا عِنْدِي : أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ عَصَمَهُمْ مِنْهُ لِأَجْلِ إِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى . لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِمُوسَى وَهَارُونَ : (

أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ ) ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . ٥٩١ / ٤ .

٨٤- قوله تعالى ( فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ... ) .

ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيْنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ، وَوَجَدَهُمْ قَدْ عَبَدُوا الْعِجْلَ

مِنْ بَعْدِهِ قَالَ لَهُمْ : يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا .

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ عِنْدِي فِي الْمُرَادِ بِهَذَا الْوَعْدِ الْحَسَنِ : أَنَّهُ وَعَدَهُمْ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ كِتَابًا فِيهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا

، وَالْآخِرَةِ . ٦١٤ / ٤ .

٨٥- قوله تعالى ( وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ) .

أَيُّ : أَوْصَيْنَاهُ أَلَّا يَقْرَبَ تِلْكَ الشَّجَرَةَ . وَهَذَا الْعَهْدُ إِلَى آدَمَ الَّذِي أَجْمَلَهُ هُنَا بَيْنَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ»

( وَثَلَايَا آدَمَ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ )

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ( فَنَسِيَ ) فِيهِ لِلْعُلَمَاءِ وَجْهَانِ مَعْرُوفَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّسْيَانِ التَّرْكَ ، فَلَا يُبَاقِي كَوْنَ التَّرْكِ عَمْدًا .

وَالْعَرَبُ تُطَلِّقُ النَّسْيَانَ وَتُرِيدُ بِهِ التَّرْكَ وَلَوْ عَمْدًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ( قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ) .

فَالْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : التَّرْكَ فَصْدًا . وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى ( فَالْيَوْمَ نُنَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ) .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : هُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّسْيَانِ فِي الْآيَةِ : النَّسْيَانُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الدِّكْرِ .

لِأَنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا أَقْسَمَ لَهُ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَهُ نَاصِحٌ فِيمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاهُ رَبُّهُ عَنْهَا غَرَّهُ وَخَدَعَهُ بِذَلِكَ ، حَتَّى

أَنْسَاهُ الْعَهْدَ الْمَذْكُورَ . كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ( وَقَاسَمْتُهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ فَذَلَّلَاهُمَا بِغُرُورٍ ) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ عَاهَدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

أَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَلَا إِشْكَالَ فِي قَوْلِهِ ( وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ) وَأَمَّا عَلَى الثَّانِي فَبِهِ إِشْكَالٌ مَعْرُوفٌ . لِأَنَّ النَّاسِيَ مَعْدُورٌ

فَكَيْفَ يُقَالُ فِيهِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى .

وَأَظْهَرُ أَوْجُهِ الْجَوَابِ عِنْدِي عَنْ ذَلِكَ : أَنَّ آدَمَ لَمْ يَكُنْ مَعْدُورًا بِالنَّسْيَانِ . وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي كِتَابِي (دَفْعُ إِبْهَامِ الْإِضْطِرَابِ عَنْ

آيَاتِ الْكِتَابِ) الْأَدِلَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الْعُدْرَ بِالتَّسْيَانِ وَالْحُطْأَ وَالْإِكْرَاهِ مِنْ خِصَائِصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ . كَقَوْلِهِ هُنَا فَنَسِيَ مَعَ قَوْلِهِ وَعَصَى فَأَسْنَدَ إِلَيْهِ التَّسْيَانُ ، وَالْعَصْبَانُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَعْدُورٍ بِالتَّسْيَانِ .

وَمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا نَبَتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَرَأَ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، قَالَ اللَّهُ نَعَمْ فَذُفَعْتُ .

فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مَعْفُومًا عَنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ لَمَا كَانَ لِدِكْرِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِنَانِ وَتَعْظِيمِ الْمِنَّةِ عَظِيمٍ مَوْجِعٍ . وَيُسْتَأْنَسُ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ ( كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذِّينِ مِنْ قَبْلِنَا ) .

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ حَدِيثُ ( إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْحُطْأَ ، وَالتَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ ) . فَقَوْلُهُ «تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي» يَدُلُّ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ بِأُمَّتِهِ . ٤ / ٦٤٧ .

٨٦- قوله تعالى ( فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ) .

قَوْلُهُ فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ ( فَتَشْقَى ) أَي : فَتَتَعَبُ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ بِالْكَدِّ ، وَالْإِكْتِسَابِ ، لِأَنَّهُ لَا يُحْصَلُ لُقْمَةُ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ حَتَّى يَخْرُجَ الْأَرْضَ ، ثُمَّ يَزْرَعَهَا ، ثُمَّ يَقُومُ عَلَى الزَّرْعِ حَتَّى يُدْرِكَ ، ثُمَّ يَدْرُسُهُ ، ثُمَّ يَقْبِيهِ ، ثُمَّ يَطْحَنُهُ ، ثُمَّ يَعْجَنُهُ ، ثُمَّ يَخْبِزُهُ . فَهَذَا شَقَاؤُهُ الْمَذْكُورُ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّقَاءِ فِي هَذِهِ آيَةِ : التَّعَبُ فِي اِكْتِسَابِ الْمَعِيشَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَهُ ( إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ) . ٤ / ٦٥٢ .

٨٧- قوله تعالى ( فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومملك لا يبلى ) .

الْوَسْوَسَةُ ، وَالْوَسْوَسُ : الصَّوْتُ الْحَفِيُّ .

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى آدَمَ إِشْكَالًا مَعْرُوفًا ، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : إِبْلِيسُ قَدْ أَخْرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ صَاحِبًا مَذْمُومًا مَذْخُورًا ، فَكَيْفَ أَمَكَّنَهُ الرَّجُوعُ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى وَسْوَسَ لِآدَمَ ؟

وَالْمُفَسِّرُونَ يَدْكُرُونَ فِي ذَلِكَ قِصَّةَ الْحَيَّةِ ، وَأَنَّهُ دَخَلَ فِيهَا فَأَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ ، وَالْمَلَائِكَةُ الْمُؤَكَّلُونَ بِهَا لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ . وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ . وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا إِشْكَالَ فِي ذَلِكَ ، لِإِمْكَانِ أَنْ يَقِفَ إِبْلِيسُ خَارِجَ الْجَنَّةِ قَرِيبًا مِنْ طَرَفِهَا بَحِيثٌ يَسْمَعُ آدَمَ كَلَامَهُ وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِمْكَانِ أَنْ يُدْخِلَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا لِامْتِحَانِ آدَمَ وَزَوْجِهِ ، لَا لِكِرَامَةِ إِبْلِيسَ . فَلَا مُحَالَ عَقْلًا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . وَالْقُرْآنُ قَدْ جَاءَ بِأَنَّ إِبْلِيسَ كَلَّمَ آدَمَ ، وَحَلَفَ لَهُ حَتَّى غَرَّهُ وَزَوَّجَهُ بِذَلِكَ . ٤ / ٦٥٨ .

تبيينه :

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ «الْكَهْفِ» أَنَّ اخْتِلَافَ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْيِينِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ آدَمَ عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا اخْتِلَافٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ ، لِعَدَمِ الدَّلِيلِ عَلَى تَعْيِينِهَا ، وَعَدَمِ الْفَائِدَةِ فِي مَعْرِفَةِ عَيْنِهَا ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : هِيَ السُّبُّلَةُ . وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : هِيَ شَجَرَةُ الْكَرْمِ . وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : هِيَ شَجَرَةُ التَّيْنِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ . ٤ / ٦٦٠ .

٨٨- قوله تعالى ( فأكلًا منها فبدت لهما سوءاتهما وطبقا يخرصان عليهما من ورق الجنة وعصى ) .

وَاعْلَمْ أَنَّ السُّتْرَ الَّذِي كَانَ عَلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ ، وَانْكَشَفَ عَنْهُمَا لَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَعْيِينِهِ :

فَقَالَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانَ عَلَيْهِمَا لِبَاسٌ مِنْ جِنْسِ الطُّفْرِ . فَلَمَّا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ أَرَاَهُ اللَّهُ عَنْهُمَا إِلَّا مَا أَبْقَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَصَابِعِ .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانَ لِبَاسُهُمَا نُورًا يَشْتُرُّ اللَّهُ بِهِ سَوْءَاتِهِمَا .

وَقِيلَ : لِيَأْسُ مِنْ يَأْفُوتِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ .

وَهُوَ مِنَ الْإِخْتِلَافِ الَّذِي لَا طَائِلَ تَحْتَهُ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى الْوَاقِعِ فِيهِ كَمَا قَدَّمْنَا كَثِيرًا مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ «الْكَهْفِ» . وَغَايَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ : أَنَّهُمَا كَانَ عَلَيْهِمَا لِيَأْسٌ يَسْتُرُهُمَا اللَّهُ بِهِ . فَلَمَّا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ نَزَعَ عَنْهُمَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا . وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اللَّيَاسُ الْمَذْكُورُ الطُّفْرُ أَوْ الثُّورُ ، أَوْ لِيَأْسَ الثَّقَفَى ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ . ٤ / ٦٦٣ .

٨٩- قوله تعالى ( وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ) .

قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَأَبُو صَالِحٍ ، وَالسُّدِّيُّ : أَعْمَى أَيُّ : لَا حُجَّةَ لَهُ .

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَرْجِمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ : أَنَّ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا أَنْ يَقُولَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي الْآيَةِ قَوْلًا ، وَيَكُونُ فِي نَفْسِ الْآيَةِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ الْقَوْلِ . وَقَدْ دَكَّرْنَا أَمْثِلَةً مُتَعَدِّدَةً لِذَلِكَ .

فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَرِينَةٌ دَالَّةٌ عَلَى خِلَافِ قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَأَبِي صَالِحٍ ، وَعِكْرَمَةَ . وَأَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ ( أَعْمَى ) أَيُّ : أَعْمَى الْبَصَرَ لَا يَرَى شَيْئًا .

وَالْقَرِينَةُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى ( قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ) ، فَصَرَّحَ بِأَنَّ عَمَاهُ هُوَ الْعَمَى الْمُقَابِلُ لِلْبَصَرِ وَهُوَ بَصَرُ الْعَيْنِ ، لِأَنَّ الْكَافِرَ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْقَلْبِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .

وَقَدْ زَادَ حَلَّ وَعَالَ فِي سُورَةِ «بَنِي إِسْرَائِيلَ» أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ الْعَمَى يُحْشَرُ أَصَمًّا أَبْكُمْ أَيْضًا ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ) . ٤ / ٦٨٣ .

٩٠- فِي آيَةِ " طه " هَذِهِ وَآيَةِ " الْإِسْرَاءِ " الْمَذْكُورَتَيْنِ إِشْكَالٌ مَعْرُوفٌ . وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُمَا قَدْ دَلَّتَا عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، وَزَادَتْ آيَةُ " الْإِسْرَاءِ " أَنَّهُ يُحْشَرُ أَبْكُمْ أَيْضًا ، مَعَ أَنَّهُ دَلَّتْ آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُبْصَرُونَ وَيَسْمَعُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ) وَقَوْلِهِ تَعَالَى ( وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا )

وَجَوَابٌ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ :

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ : وَاسْتَظْهَرَهُ أَبُو حَيَّانَ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْعَمَى ، وَالصَّمَمِ ، وَالْبُكْمِ حَقِيقَتُهُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ أَبْصَارَهُمْ وَنُطْقَهُمْ وَسَمْعَهُمْ فَيَرَوْنَ النَّارَ وَيَسْمَعُونَ زَفِيرَهَا ، وَيَنْطِقُونَ بِمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا يَسْرُهُمْ ، وَلَا يَسْمَعُونَ كَذَلِكَ ، وَلَا يَنْطِقُونَ بِحُجَّةٍ ، كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا لَا يَسْتَبْصِرُونَ ، وَلَا يَنْطِقُونَ بِالْحَقِّ ، وَلَا يَسْمَعُونَ .

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ : أَنَّ اللَّهَ إِذَا قَالَ لَهُمْ ( اخْسُئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ) وَقَعَ بِهِمْ ذَلِكَ الْعَمَى ، وَالصَّمَمُ ، وَالْبُكْمُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ ، وَالْيَأْسِ مِنَ الْفَرَجِ ، قَالَ تَعَالَى ( وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ) .

( ٤ / ٦٨٤ )

وَأَظْهَرَهَا عِنْدِي الْأَوَّلُ .